مات بعضهم وهي في الوجود، ومات بعض قبل أن تكون، فإذا هي تُقاسي من فقد أُولئك مقاساة عيان واكبت بها الأحداث، ومن فقد هؤلاء مقاساة أحاديث ردّدتها على سمعها شفاه ... وقد يكون حديث الذكريات أحياناً أوجع للقلب من حديث الحدثان. فإن لم تكن فاطمة بعد هذا كلّه حزينةً، فمتى إذاً تكون؟ بل الطبيعي أن ينتهبها ألم الحزن، فتوشك ألاّ تُرى إلاّ وهي أليفة همٍّ، خدينة[869] أسىً، كاسفة البال[870]. وما هي إذاً بسوية النفس لو افتقدت القدرة على الإحساس بما تعانيه. * * * وينكر ذلك النفر من رجال الاستشراق على الزهراء حصافة الرأي[871] وألمعيّة الذكاء، حتّى لرأوها عاجزةً عن مقاومة دهاء عائشة، وحسن تبصّرها بالأُمور وإن كانت زوجة الرسول الأثيرة تصغرها حينذاك بخمس سنوات. فبأيّ ميزان عادل وزنوا الاثنين، فشالت كفّة فاطمة ورجّحت كفّة أُم المؤمنين؟ إنّهم يدّعون أنّ الرسول قال: «زينب أفضل بناتي». ويستخلصون من هذا القول تأخّرها في مجالات الذهن المتوقّد والنظر اللمّاح. فكأنّي بهم قد أغفلوا أنّ عائشة وصفتها، فكان ممّا ذكرته فيها: ما رأيت أفضل من فاطمة إلاّ أباها[872]. والفضل هو الفضيلة.